الريف والفـــلاح دائماً (*)

أتحدث إليكم الليلة أيضاً عن «الريف والفلاح» . ولعل بعضكم يتساءل — هلا كان الحديث فى غير « الريف والفلاح » ؟ ألم يمل هذا المنادى ترديد هذا النداء ؟ لقد وصلت قضية الفلاح جميع الأسماع ، وشقت طريقها إلى كل الأفئدة ، فهلا سلك غير هذه الطريق ؟ وإنى أقول لهؤلاء المتسائلين — كلا . لم أمل هذا الحديث ولن أمله ، ولن أثنى عن ترديد هذا النداء ما حييت ، أو أرى قضيته — وهى فى الواقع قضية الشعب المصرى — قد انتهت من دور التحضير والمرافعة ، وصارت واضحة الأعلام محددة الغرض ، ووضعت سياسة شاملة لإصلاح الريف ، تأخذ بها الجهات المختصة وتنفذها نقطة فنقطة ، فأنى فلاح ابن فلاح ، ومن محاسن الصدف أن يكون عملى فى الحياة مرتبطاً بالفلاح وحياة الفلاح ، وفى كل يوم أرى عن كثب ما عليه ريفنا من نقص وما يعانيه فلاحنا من متاعب .

الريف كمهد لجميع المصريين : وإننى إذا ناديت بإصلاح الريف وتزويده بما يحببه إلى المصريين عامة ، وما يرغب أهله فيه حتى لا يفروا منه إلى المدن والبنادر خاصة ، فإنما أنادى بإصلاح أعز شىء لدى جميع المصريين ، وهو أول مهد درجوا بين أحضانه ، وأول أرض أقلتهم ظهرها وأظلتهم سماؤها ، وغذاهم خيرها . وإنه لمن العقوق أن ننساه أو نتناساه ، كما فعلنا فى الماضى ، حتى غدا على ما هو عليه من بؤس ، وما بلغ من انحطاط ، نهبة الفقر والجهل والمرض ، حتى أصبح أهله يفرون منه مفضلين عيش المدن مهما تفه على حياة الريف مهما عظمت . وهو الذى كان يوماً جنة الدنيا .

الريف كمصدر للثروة فى مصر : ومن المعلوم أن حياة مصر مرتبطة بالزراعة منذ أقدم عصور التاريخ ، وأن المصريين يمارسون الزراعة العملية منذ فجر التاريخ ، وعليها يعتمدون فى حياتهم فيخرجون من كنوز الأرض وخيراتها ما يكفى حاجتهم ،

(*) محاضرة لحضرة صاحب السعادة فؤاد أباظه باشا ، ألقيت بقاعة محاضرات الجمعية الزراعية الملكية .

بل ويزيد ، ولا بد أنكم تعرفون أن مصر كانت تمون روما بالقمح ، كما كانت حيرانها تصل إلى جيرانها من بلاد النوبة والحبشة وبلاد العرب .

وإنه لمن المؤسف حقاً أن يكون ذلك ذكرى فى أعماق التاريخ البعيد ، وأن تكون الآية معكوسة اليوم ، فنرى مصر ذات الأرض الذهبية تشكو قلة المؤن والغذاء .

وإن المرء ليتساءل : ولم ذلك ؟ هل عقمت الأرض ونضب معينها فلم تعد تجود بخيرها ؟ أم قصرت وسائل الاستغلال وجهود الفن عن تذليلها وكبح جماحها ؟ وإنى أقول كلا . لم تعقم الأرض ولم يقصر الفن ، وإنما قصر إشراف الزراع على مزارعهم ، وركنوا إلى الترف وعيش المدن الرغيد ، وتركوها فى أيدى عمال أكثرهم ينقصهم حسن الإدارة ، مكتفين بما تجود به عليهم أيدى هؤلاء العمال من الإيراد مهما قل ، وأظن كثيراً منكم يعرفون من هذه الأخبار ما يغنى عن الإطالة فيها ، ونتساءل نحن . ولماذا هجر أصحاب المزارع مزارعهم ؟ يزعم فريق منهم أن ذلك مرده إلى عوامل خاصة ، كالإشراف على تعليم الأبناء أو التعلل بالأمراض وضرورة التردد على الأطباء مثلا ، وهى تعللات مقبولة شكلا ، وإن كانوا فى الواقع يخدعون أنفسهم ، والأجدر بهم أن يعترفوا مع المعترفين بأن أنوار المدينة هى التى اجتذبتهم وأغرتهم بهجر مواطن آبائهم ومهبط أرزاقهم . أولى لهم أن يعترفوا بأن إقفار الريف من وسائل البهجة وما يخيم عليه من سكون موحش ، وما يسود قراه وعزبه وكفوره من قذارة ، هى التى جعلتهم يفرون إلى المدن ، حيث الأنوار الساطعة والبهجة المصنوعة والمطبوعة ، والماء النقى والعيش الرغيد ، وأن المدينة أنستهم ذكر الريف ، فلم يعودوا يذكرونه إلا بمقدار ما يحتاجون من مال . ولو أنه ظفر منهم حتى بشهور الصيف يقضونها بين ربوعه ، لنشروا بين أهليه ظلا من روح العلم الذى تعلموا ، والمدنية التى اقتبسوا ، ولكان ذلك آتياً ثماره على مدى السنين ، ولما شكوا اليوم عقم الأرض وبؤس الفلاح الذى يهدد جميع المصريين .

هذه حال الريف ، فما هى حال الفلاح ؟

الفلاح كعنصر من عناصر الثروة : قضى الله لمصر أن تكون اليد العاملة فيها هى كل شىء ، وعلى مقدار صلاحيتها يكون رخاء أهلها وضيقهم ، فهل الفلاح أسعد حالا من الريف ، وهل إنتاج الأيدى العاملة من الفلاحين عندنا يتكافأ وعدد

السكان ؟ لست أريد أن أدخل بكم فى إحصائيات وأرقام حسابية لأدلل لكم على مدى ضعف الأيدى العاملة ، وبالتالى ضآلة الإنتاج ، فأظنكم لا تختلفون على أن ذلك من القضايا المسلم بها ، وإنما لابد لى أن أقول أن ما يخص الفرد من الأرض الزراعية إذا ما قسمناها على جميع السكان بلا فارق بين الكبير والصغير هو ٩ قراريط ، وكان المنطق يقضى بأنه كلما قلت المساحة التى يفلحها كل فرد أن تقابل ذلك زيادة فى الإنتاج . ولكن الواقع يثبت أن النتيجة عكسية ، أى أن الإنتاج ضئيل أيضاً . ومعنى هذا أن اليد العاملة أصابها الوهن حتى لم تعد تستطيع استثمار مثل هذه المساحة البالغة الضآلة .

وإذن فمن الواجب أن نتقصى أسباب هذا الوهن فى الأيدى العاملة فنجد أن الأمراض المتوطنة تهد منها جانباً ، وأن الأمراض الناشئة عن سوء التغذية بسبب الفقر تهد جانباً ، وأن القذارة المنتشرة فى البيوت والقرى وما يحمله البعوض إلى الريفيين من سموم المستنقعات وأكوام السماد المحيطة بالقرى تهد جانباً ، وهناك عدا ذلك كثير من العلل علمه عند وزارة الصحة ، كل هؤلاء الأعداء تحالفوا على الفلاح المسكين وهو ما يزال ينتظر النجدة من أنصاره ، ولكن هل فى طوقه أن يحتمل كل ذلك إلى أن يتخذ أنصاره عدتهم كاملة ، أكبر الظن أن لا — وأن لا بد من خطوة عملية جريئة تكون على الأقل مسكنة .

هذه بعض أدواء الريف ، وهناك داء آخر وهو داء الجهل ، والجهل المطبق برغم نظام التعليم الإلزامى الذى كلف الدولة منذ إنشائه نحو الثلاثين مليوناً من الجنيهات ، وهاك وزارة المعارف تعمل جهدها فى القضاء على الأمية .

ليست هذه يا سادة هى كل الأسباب التى جعلت الريف والفلاح على ما هما عليه والتى تهد من قوى الأيدى العاملة ، وتضعف إنتاجها ، فهى كثيرة العدد ، متشعبة الفروع — وإنما هذه التى ذكرناها هى أهمها أو من أهمها .

وهذه باختصار حال الفلاح أيضاً ، فماذا عملنا لإصلاح الريف والفلاح ؟

سأقصر كلامى هنا على ما اتخذته الجمعية الزراعية الملكية ، وما عمله حضرة صاحب السمو الأمير عمر طوسون رئيسها فى مزارعه ، وما عملته أنا مديرها العام فى مزارعى أيضاً .

ما عملته الجمعية الزراعية الملكية للمشروع — ذكرت لحضراتكم أن الفقر والمرض من أهم العلل التي تفتك بالفلاح ، فاتجهت الجمعية لحربهما مباشرة ، فعملت على محاربة الفقر (بإمداد الفلاح بالتقاوى الجيدة لمختلف المحاصيل وتزويده بالمواشي الجيدة ، حتى توفر له الغذاء فيحتفظ بقوته . وللأرض السماد فتحتفظ بخصوبتها ، كما أنها ترشد الزراع إلى أفضل أنواع الأسمدة المناسبة لزراعتهم وطبيعة أراضيهم وعلاقتها بالمحاصيل المختلفة على ضوء ما تجريه فى تفتيش بهتيم من تجارب) ، كما قامت فى هذه الظروف برفع أجور عمالها الزراعيين منذ شهر يونيه الماضى وأصبح أجر العامل خمسة قروش صاغاً يومياً ، لما يحيط التفتيش من مصانع ومعامل . وإنى لأهيب بكبار الزراع أن يحذو هذا المثال ليتمكن عمالهم من مواجهة غلاء المعيشة فى هذه الأيام لتأمين مصالحهم من جهة وضماناً لاحتفاظ الأيدى العاملة بقواها كضمان لزيادة الإنتاج ، وفى هذا ولا شك نفع الطرفين . وإذا كنا نعمل على توفير العلف للماشية ، حتى تكون أكثر إنتاجاً وأقوى على العمل فإن الفلاح أولى بهذه الرعاية ، فضلا عن أنه أخ لنا فى الإنسانية قبل كل شيء — فإن قوة بدنه تدر على المالك خير الإنتاج من أرضه .

وقد قامت الجمعية أيضاً بتوزيع عدد من الأبقار والجاموس على عمالها الزراعيين دفعت هى ثمنه على أن تتقاضاه منهم مقسطاً على أربع سنوات — وهذه طريقة من طرق تسهيل العيش للعمال .

أما أنا فإنى أتبع مع مزارعى طريقة « الشرك » التي يعرفها الفلاح ، ولكن الكثيرين لا يعملون بها — وعلى كل فإن الغرض المهم أن يحصل الفلاح على الماشية ، فإن الجاموسة أو البقرة فاوريقة صغيرة على قدر الفلاح ، ينتج منها الجبن واللبن والسمن واللحم والسباخ .

ولا تنى الجمعية عن مواساة عمالها فى تفتيش بهتيم فى المناسبات المختلفة بشيء من الترفيه ، كتقديم اللحوم فى الأعياد بسعر اسمى قدره قرش للرطل على أن تتحمل هى الباقى ، حرصاً على كرامتهم ، كما قدمت إليهم فى هذا العام أحذية من نوع «البلغ» دفعت هى ثلثا ثمنها وتحمل العمال الثلث الباقى وقدره خمسة قروش لكل زوج ، كما أنها تقوم بتغذية أبنائهم الذين يتعلمون فى مدرسة العزبة تعليما يجمع بين مزايا التعليم النظرى والعملى حتى لا تبعدهم عن البيئة الريفية الصرف ، وتكسو من لا يزيد دخل أسرته

على خمسين قرشاً في الشهر ، وأنشأت لهم جمعية تعاونية لتقدم إليهم حاجياتهم بثمن معقول ، وهي في كل ذلك تتوخى أن لا تشعرهم بأن ما تقدمه إليهم من مواساة هو صدقة ، بل تعمد أن تتخذ من ذلك وسيلة من وسائل إحياء روح التنافس بينهم حتى لتقيم بينهم سنوياً مسابقة للنظافة تمنح المتفوق فيها جوائز تنتخب من النوع الذي ينفعهم في حياتهم كالمواشي والطيور .

هذا بعض ما قامت به الجمعية لعمالها وفلاحيها من المعاونات المادية كوسيلة للتغلب على العدو الأول وهو الفقر .

عزب بهتيم النموذجية : أما العدو الثاني وهو المرض — فقد أدركت الجمعية منذ زمن بعيد بحكم اتصالها اتصالا مباشراً بالفلاح ما عليه مسكنه من قذارة وعدم نظام ، وخلوه من المرافق الصحية ، حتى كان مباءة للأمراض بدل أن يكون مهداً للراحة . فعملت على إنشاء عزب بهتيم النموذجية ، وبدأت بإنشاء العزبة الحمراء في سنة ١٩٣٤ ، وسميت بالعزبة الحمراء لأنها بنيت من الطوب الأحمر والأسمنت وتكلف المنزل فيها ١٢٥ جنيهاً — وقد روعي في تصميمها أن تجمع بين أحدث الأساليب الهندسية وبين البيئة الريفية . فهي تتكون من ثلاثين منزلا للعمال وثلاثة لموظفي الزراعة ثم الجامع والمدرسة والحمامات للرجال وحمامات النساء كل منهما على حدة ، والمضيفة ودكانان ودوار يشمل المخازن اللازمة وبعض المرافق الأخرى .

وكان القصد من بنائها بهذه التكاليف أن تكون مثالا للزراع من حيث المواصفات والتنسيق ليأخذ كل منها على قدر حاله ، ولذلك أنشأت الجمعية العزبة الخضراء من الطوب النيء بحيث جمعت مزايا العزبة الحمراء مع رخص الكلفة ، حتى يستطيعها كل مالك — وقد تكلف المنزل الواحد منها ٢٥ جنيهاً مقابل ١٢٥ جنيهاً في العزبة الحمراء .

وقد قصدت الجمعية بإقامة هذين النموذجين أن تهيء لعمالها منزلا صالحاً يقضون فيه وقتاً يعوضهم ما ينفقون من جهد طول اليوم ولتكون مرشداً لمن يريد أن يبني عزباً من كبار الزراع — وتعهدت الجمعية سكان هذه العزب بالإرشاد الاجتماعي المنظم ونشر الثقافة الصحية والدينية بينهم .

ويمكن تعميم إنشاء القرى الصحية فى جميع بلاد القطر على طراز القرى التى أنشأتها الجمعية الزراعية فى بهتيم ، والسبيل إلى ذلك واضحة ميسورة ، يستطيع أن يسلكها كل زارع مقتدر مخلص يريد عن رغبة ، أن يضع فى بناء النهضة الريفية حجراً ، ولكى تقرب الجمعية الزراعية ذلك للراغبين قامت بإنشاء هذين النموذجين .

وقد أنشأت أنا شخصياً هذا العام فى مزارعى قريباً من منيا القمح وشربين عزبتين من الطوب الأخضر ، تكلف المنزل فيها ٢٠ جنيهاً — فلو صدقت النيات فى سبيل نهضة الريف لتحقق ذلك فى أقرب الظروف . هذا فيما يختص بالعزب التى ينشئها الملاك وأصحاب المزارع الكبيرة على نفقتهم وفى الإمكان أن يشمل هذا التجديد مبانى القرى الكبيرة متى توفر الصدق والرغبة . فقد نقل حضرة صاحب السمو الأمير عمر طوسون رئيس الجمعية الزراعية بلدة ميت زنقر القديمة ، إحدى القرى القريبة من مزارع سموه بدميرة — بأن تبرع بالمساحة اللازمة للمبانى من أملاكه لتبنى فيها القرية الجديدة على النظام الحديث وخصص لكل فلاح مساحة يبنى فيها داره ومصاريف النقل على حساب الدائرة — كما أنه يجرى إصلاح عزبه القديمة وهدمها واستعمال الطوب والأخشاب القديمة فى إعادة بنائها مع تخطيطها بشكل صالح ولم تتكلف الدار الواحدة فى الوقت الحاضر أكثر من ستة جنيهات ، ويمكن لكبار الزراع الاقتداء بسموه فى ذلك — ومن ثم فأننا لن نلبث أن نرى نهضة البناء الريفية شاملة وأن نرى ريفنا جديداً نظيفاً فى مدى قريب .

المركز الاجتماعى فى بهتيم : وأخيراً وفى الأزمة الطاحنة الحاضرة لم تحجم الجمعية عن إنشاء مركز اجتماعى فى تفتيش بهتيم يعم نفعه المنطقة المحيطة به ، ولم تتلمس الأسباب للتأجيل اعتقاداً منها بأن المنفعة التى تعود منه تفوق كل ما ينفق فى سبيله من جهد ومال ، وها قد وضع سمو الأمير عمر طوسون رئيس الجمعية الزراعية الحجر الأساسى لبنائه بيده الكريمة فى حفل أقيم هناك يوم ٢ ديسمبر الحالى .

ومنافع المركز الاجتماعى أكثر من أن تعد فى هذا المقام ويكفى أن أقول أنه سيتولى الخدمة الاجتماعية والصحية والثقافية والاقتصادية فى دائرة واسعة تشمل أهل المنطقة جميعاً وهم يزيدون على عشرة آلاف نفس — وستشتمل المنشئات على عيادة طبية يصرف منها الدواء — بالمجان ، ودار للأمومة والطفولة ، ومغاسل

للثياب ، وحمامات للرجال والنساء ، وستكون نتيجة هذه الجهود ولا شك مما يغتبط به العاملون لقضية الفلاح .

هذه خلاصة لما قامت به الجمعية من أعمال مادية وأدبية للفلاح والريف . وها هى ذى منشئاتها فى الجزيرة وبهتيم مفتوحة لكل راغب فى زيارتها . ولعلنا نرى من كبار الزراع اهتماماً بالريف والفلاح يتكافأ وما لهما من منزلة فى حياتنا العامة .

وإنى إذ أهيب بكبار الزراع أن يعيروا قضية الفلاح ما تستحقه من اهتمام ، فإنى أكرر أن ذلك — ليس من باب الشفقة والرحمة فحسب — وإنما من باب تأمين مصالحهم وازدياد ثروتهم وبالتالى ثروة البلاد ورفاهيتها .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟